يندرج هذا المقال في إطار احتفال "مؤسسة علي يعته" بالذكرى الثمانين لتأسيس حزب التقدم والاشتراكية وريث حزب التحرر والاشتراكية والحزب الشيوعي المغربي (1943-2023) وأصل المقال كمساهمة مني في ذكرى وفاة الفقيد 23 ماي،

كما يندرج في محور خصصته مؤسسة على يعته لأحد أركان حزب التقدم والاشتراكية: "عزيز بلال، المفكر الملتزم والمناضل السياسي الصلب، والنقابي المحنك".

المقال عبارة عن شهادة من مناضل عاصر المناضل عزيز بلال بمدينة الرباط مطلع السبعينيات، وجمعه به لقاءات في تنظيمات متعددة. وتكريما لهذا المفكر النوعي، يشرفني كباحث جامعي وعضو في مكتب "مركز الأبحاث والدراسات عزيز بلال"، وعضو في المجلس الإداري لمؤسسة علي يعته، أن أهدي هذا المقال لروح هذا العالم الملتزم والمناضل الصلب والسياسي والنقابي المحنك. محتوى المقال مستمد من مواقف جريئة ورزينة تحسب للمرحوم عزيز بلال، خلال عقد من الزمن، في فترة احتكاكي بهذه الشخصية النوعية والفذة، كطالب مناضل في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وعضو في حزب التحرر والاشتراكية المحظور في مطلع السبعينيات وفي "القطاع الطلابي لأنصار التحرر والاشتراكية"، وفي مرحلة لاحقة من خلال الإطار النقابي الذي جمعنا واشتغلنا فيه معا، كل من موقعه، بمركزية الاتحاد المغربي للشغل، في العمل التنسيقي، كمناضل باللجنة الإدارية للنقابة الوطنية للتعليم الثانوي أولا، ثم كمناضل شاب في النقابة الوطنية للتعليم العالي، التي كان عزيز بلال أحد مؤسسيها.

وبهذه المناسبة نحيي جهود مؤسسة علي يعته التي أخذت مبادرة الاحتفال بذكرى تأسيس الحزب عبر تكريم رموز الحزب من الرعيل الأول والتي لها رمزيتها الخاصة، لكونها تحتفي وتذكر بأبحاث وخلاصات شهيد الجامعة والوطن والعالم النامي والتقدمي عزيز بلال، هذا الذي يعتبر المنظر الأيديولوجي للفكر الحداثي التقدمي بالمغرب، والخبير الاقتصادي الكفء والمقتدر. لقد وضع علمه وخبرته في خدمة الجامعة المغربية وبلده والعالم العربي والنامي، وخاصة بلدان إفريقيا جنوب الصحراء كأنكولا والمزنبيق.

عزيز بلال.. المفكر الملتزم، والمناضل السياسي الصلب، والنقابي المحنك

تمهيد

يرجع الفضل إلى عزيز بلال في تحليل ظاهرة التخلف في أبعادها التاريخية والسوسيواقتصادية-اجتماعية والثقافية والجغرافية، وسبل تجاوزها بالمغرب. ويتقاسم معه نفس التحاليل والأفكار مفكرون تقدميون من عيار سمير أمين بمصر، وملتون سانتوس بأمريكا اللاتينية، وإيف لاكوست بفرنسا، ويوري بوبوف بالاتحاد السوفياتي سابقا.. وتلامذته من المغرب وفي مقدمتهم رفيقه في النضال الأستاذ الفخري بجامعة محمد الخامس سي عبدالقادر برادة وآخرين كثر يصعب حصرهم (محمد شيكر، عبدالسلام الصديقي، عبدالواحد الجاي، لحسن العاملي...).

سوف نركز في هذا المقال على بعض الجوانب المرتبطة بشخصية عزيز بلال المناضل السياسي الصلب الذي لا يضعف أمام إغراءات المال والسلطة والجاه. والمفكر العضوي الذي ربط بين النضال بالقلم والممارسة في الميدان، وحسن الإنصات في تواضع، للشباب وخاصة طلبة الجامعة، وللجماهير الكادحة من عمال وفلاحين صغار، التي كان يساندها وينظمها ويوجهها ويرفع من معنوياتها. وكذا الأستاذ الجامعي المتميز الذي استطاع أن يستقطب، بطريق غير مباشر، وبشكل عفوي آلاف المثقفين والباحثين المتأثرين بتحاليله الثاقبة وشمولية أبحاثه التي لا تقتصر على الجانب الاقتصادي، بل تتعداه إلى دراسة شاملة (ثقافية، سياسية وسسيواجتماعية) لظاهرة التخلف وسبل التنمية، توجها بإصدار عصارتها في كتابه الذائع الصيت الذي أصدره قبل وفاته المفاجئ: التنمية والعوامل الغير إقتصادية(1) والتي قام مركز عزيز بلال بترجمته من الفرنسية إلى اللغة العربية 2020، وتم نشره في سلسلة "دفاتر مركز الدراسات والأبحاث عزيز بلال (CERAB) ".

لابد لي أن أدلي بشهادات تدخل في خانة تدوين بعض مواقف المناضل "عبدالعزيز بلال" السياسية والنقابية وتراثه الفكري ضمن أرشيف الحزب، وحزب التقدم والاشتراكية يحيي الذكرى 80 لتأسيسه، عبر التعريف برصانة تحاليل هذا المفكر المبدع، وحصافة مواقفه في منعطفات حاسمة من تاريخ البلد، ومنها موقفه من القضية الفلسطينية ومن القضية الوطنية والمسلسل الديموقراطي. ولذا فإن معظم الأفكار والمعلومات الواردة في هذا المقال تستند على ما سجلته في ذاكرتي السياسية، خلال عقد من الزمن، كنت شاهد عيان في الفترة المعاصرة التي عاش فيها المرحوم عزيز بلال بالرباط والدار البيضاء(2) (1968- 1982) والتي تصادف انخراطي في حزب التحرر والاشتراكية المحظور ونضالي به (1970-1974)، ثم استمراري إلى جانب رفيقات ورفاق آخرين مناضلا في العلنية بحزب التقدم والاشتراكية منذ تأسيسه سنة 1974 إلى اليوم (2024). هذا ما سهل احتكاكي بعزيز بلال (في الزمان) في عدة محطات نضالية ومناسبات حزبية؛ (وفي المكان) بفضل ريع موقع الرباط كعاصمة وجامعة محمد الخامس.

تمثل الاتصال والاحتكاك بعزيز بلال في اللقاءات والاجتماعات الحزبية والتجمعات الجماهيرية، وعبر حضور محاضراته التي كان ينشطها برحاب جامعة محمد الخامس وفضاءات مدينة الرباط (كالمنبع بأكدال La source)؛ وخاصة ونحن آنذاك، شبابا مناضلين بالخلايا الطلابية الحزبية بجامعة محمد الخامس (كلية الآداب بالرباط)، في إطار تيار "طلبة أنصار التحرر والاشتراكية"، الذي كان هو نفسه موجها لنا في مكتب "ناحية الرباط"، حيث كنا نناضل إلى جانب اليسار بتياراته المتنوعة خلال السبعينات. وكان اتصالنا به لاحقا عندما عينا أساتذة بنيابة الرباط وسلا، ننشط كأساتذة ونقابيين بالثانوي بسلا والرباط، حيث جمع بيننا النضال المشترك بمركزية الاتحاد المغربي للشغل. وأخيرا كانت لقاءاتنا بهذا المناضل كزميل لنا وكنقابي متمرس، بجامعة محمد الخامس؛ حيث جمع بيننا النضال المشترك في إطار النقابة الوطنية للتعليم العالي التي كان أحد مؤسسيها من الرعيل الأول، وأحد أعمدتها. واستمر نشاطنا المشترك وإلى جانبه إلى حين وفاته سنة 1982.

■بقلم: موسى كرزازي *

1- عزيز بلال النقابي المحنك، المؤطر والموجه للطبقة العاملة، والمساند للفلاحين الفقراء

كان نشاط عزيز بلال مكثفا بمركزية الاتحاد المغربي للشغل، كمؤطر لأنشطتها وتجمعاتها الجماهيرية بالرباط والدارالبيضاء، حاضرا في كل احتفالات واستعراضات فاتح ماي بالرباط والدار البيضاء. يؤمن بالوحدة النقابية حتى النخاع. في هذا الإطار روى لي أحد الزملاء الأساتذة النقابيين بهذه المركزية خلال السبعينات (كان ينتمي حزبيا للاتحاد الوطني للقوات الشعبية آنذاك)، بأنه ذات يوم جد ممطر، لم يخلف عزيز بلال موعده لحضور ندوة بمقر الاتحاد المغربي للشغل بالرباط، رغم غزارة الأمطار ذلك اليوم، التي بلغت مرحلة يصعب على الراجلين الوصول إلى المقر. ومع ذلك أبي إلا أن يخترق الشوارع الموحلة بحذائه لحضور وتأطير الندوة المذكورة، في تحدي لافت للطبيعة.

كما يحضرني، في مطلع السبعينات موقفه الصلب المناهض للبيروقراطية آنذاك التي منعت لقاء مشتركا بمقر الاتحاد المغربي للشغل بالدار البيضاء، يضم أعضاء اللجان الإدارية للنقابة الوطنية للتعليم الثانوي التي كان كاتبها العام رفيقنا المرحوم عبدالمجيد الذويب، التابعة للجامعة الوطنية للتعليم، وأعضاء اللجنة الإدارية للنقابة الوطنية للتعليم العالي التي كانت تنشط داخل بنايات هذه المركزية، رغم استقلالها التنظيمي عنها. فقد حضر عزيز بلال إلى الوقفة الاحتجاجية للتضامن مع زميلاته وزملائه في قيادة النقابتين الوطنيتين، وللتعبير عن استنكاره لأساليب بيروقراطية الاتحاد المغربي للشغل آنذاك. في الواقع، شعرت البيروقراطية النقابية بنجاح الديمقراطية الداخلية من خلال خلاصات المؤتمر الوطني للنقابة الوطنية للتعليم الثانوي، رغم كونها كانت تضم كل الاتجاهات التقدمية آنذاك مطلع السبعينيات؛ من أعضاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والتحرر والاشتراكية المحظور، وتيارات يسارية أخرى (إلى الأمام..)... ولذا كانت تخشى من تسرب رياح الديمقراطية إلى باقي النقابات المنضوية تحت لواء هذه المركزية، حيث دينامية الأساتذة كانت قوية في تأطير الطبقة العاملة والأطر الإدارية، ونساء ورجال التعليم والقطاع الخاص، مما قد يهدد مصالحها.

من جانب آخر كان لعزيز بلال خصلة الإنصات المركز لهموم الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء، وخاصة في منطقة الغرب. كانت زيارته الميدانية متكررة لهذه المنطقة الغنية بمواردها الطبيعية، والتي يهيمن عليها بعض كبار ملاك الأراضي؛ زيارات في إطار حزب التحرر والاشتراكية في فترة الحظر، لأنه كان الكاتب الأول لناحية الرباط التي كانت تضم تقريبا في مطلع السبعينات مساحة شاسعة تهم كل مجال جهة الرباط سلا القنيطرة الحالية (من الرباط إلى العرائش). ونظرا لطبيعة سهل الغرب المستوية والفيضانات التي تعمه كل سنة، فقد كان وزميله سي إسماعيل العلوي ومحمد مشارك بمكتب الناحية يضطرون إلى التزود بأحذية مطاطية (بوط) لاختراق مسالك دواوير الغرب الموحلة، خلال زياراتهم الدورية لحضور لقاءات مع مناضلي الحزب. بل يضطرون أحيانا عقد اجتماعات داخل بعض الأضرحة ليلا، درءا لعيون السلطة، التي كانت تراقب تحركاتهم. وكان عزيز بلال ينصت إلى هموم ومطالب الفلاحين الصغار والعمال الزراعيين، ويقنعهم بأهمية النضال الجماهري في إطار نقابي وسياسي لانتزاع المطالب، وتحقيق نوع من الديمقراطية في فترات صعبة عرفت بزمن الرصاص. وكان الفلاحون يستمعون باهتمام لخطابه التعبوي كسياسي ونقابي صلب ومحنك، الشيء الذي يزودهم بشحنات تحفزهم على المقاومة وعلى التفاؤل بالمستقبل.

2- الربط الجدلي بين التحرر الوطني وتعميق الديموقراطية الذي سمح بانفراج سياسي على المعارضة اليسارية

ظل عزيز بلال يربط جدليا بين التحرر الوطني الذي يعني النضال المستميت من أجل استرجاع الصحراء الغربية المغربية إلى حظيرة الوطن، وتعميق الديموقراطية بالبلد، وانتزاع الحقوق لفائدة الطبقات الكادحة، والوصول إلى التوافقات مع الغريم بدون التنازل عن المبادئ التقدمية. في هذا الإطار أتذكر جيدا، موقفا يحسب له، حين بشرنا بابتسامته المتفائلة التي تبعث الأمل، في اجتماع سري لأعضاء اللجنة الإقليمية لناحية الرباط لحزب التحرر والاشتراكية المحظور آنذاك، ليلة الخروج من السرية إلى العلنية؛ بشرنا بميلاد "حزب التقدم والاشتراكية" بتاريخ 23 غشت من سنة 1974، والذي يعتبر امتدادا لحزب التحرر والاشتراكية 1968، ووريثا للحزب الشيوعي المغربي 1943. وكان ذلك بمنزل والدته رحمها الله بحي أكدال، المجاور لساحة بوركون، بالرباط (القريبة من القاعة المغطاة حاليا)، بحضور ثلة من المناضلين في اللجنة الإقليمية.

كان عزيز بلال هو الكاتب الأول لناحية الرباط منذ مطلع الستينات إلى حين استقراره بالدار البيضاء منتصف السبعينات، حيث سيخلفه في هذه المسؤولية محمد مشارك. وبدا الرفيق جد منشرح وهو يعلن الخبر السار بانتهاء العمل السري بانتزاع الحزب حقه، كباقي الأحزاب، في العمل السياسي العلني. ولكن الرفاق المناضلين في صفوف حزب التحرر والاشتراكية، لم يثقوا أبدا في النظام المستبد آنذاك، لأنهم ذاقوا مرارة العمل السري، نظرا للقمع المسلط عليهم وعلى كل القوى التقدمية في زمن الرصاص، ولتعقب أعوان السلطة والأمن لكل تحركاتهم، والزج بعدد منهم في دهاليز الكوميساريات، وأحيانا في السجون، وتعرض جريدة البيان الصادرة سنة 1972 للحجز والمنع لعدة مرات، وقبلها جرائد الكفاح الوطني الصادرة سنة 1966، والمكافح (1960-1966) للحجز تارة، والمنع تارة أخرى ولعدة أشهر؛ كل هذا جعل الثقة منعدمة بين الرفاق والحكم. ولذا كانوا حذرين من كل مبادرة تصدر عن النظام المخزني المستبد.

في هذا اللقاء السري طرحت شخصيا، سؤالا مباشرا على الرفيق عزيز بلال، مؤطر الاجتماع السري بمنزل والدته بالرباط، يلخص في الحقيقة هواجس الرفاق الذين كانوا يشتغلون في السرية، في إطار حزب التحرر والاشتراكية ونحن في ليلة ميلاد حزب التقدم والاشتراكية، قائلا: "رفيقي العزيز، هل الحزب اليوم متأكد من نوايا الحكم بالسماح لمناضليه بالعمل في إطار المشروعية والقانونية كباقي الأحزاب الأخرى؟ وهل نثق في قرار الحكم برفع المنع عن أنشطة حزبنا بأنه صادق؟ ألا يمكن أن يكون هذا القرار مجرد خدعة سياسية من النظام، لتكون مصيدة دبرها الحكم للإيقاع بالرفاق والمناضلات بعد التعرف عليهم وعلى مواطن تواجدهم الجغرافية وأماكن عملهم وسكنهم، لإلقاء القبض عليهم لاحقا، وحظر الحزب مرة أخرى، كما فعل مع الحزب الشيوعي المغربي في نهاية خمسينيات القرن 20 ومع حزب التحرر والاشتراكية في نهاية الستينيات؟

كعادته، ابتسم الرفيق عزيز، وفي هدوء، كان رده مقنعا ومطمئنا. بل كان جوابه في غاية العمق والحكمة والرزانة وبعد النظر والتفاؤل الثوري في استشراف المستقبل. في هذا الصدد، لن أنسى أبدا، عمق وصدق جوابه، وأنا واحد من ذلك الشاب اليافع المتمرد على النظام، الذين لا يثقون في وعود الحكم ومكايده ضد المناضلات والمناضلين في عهد السرية. أجاب الرفيق عزيز قائلا: إذا كان للحكم حساباته، التي لا شك فيها، فنحن أيضا لنا حساباتنا وإستراتيجيتنا كمناضلين غيورين على بلدنا وشعبنا. إن شعبنا الآن، يخوض معركة حاسمة لتحرره الوطني، ويمر بلدنا بمرحلة دقيقة وعصيبة، تستدعي تعبئة كل الطاقات البشرية الوطنية، وتعزيز الجبهة الداخلية لاسترجاع أقاليمنا الصحراوية وتوطيدها، وهذا لن يتأتى إلا مع تعميق المسلسل الديمقراطي.

من أجل تجديد جذري للنهج التحليلي الشامل:

خمس خلاصات ومقترحات أساسية حول ظاهرة التخلف وسبل التنمية (لعزيز بلال)

1- اعتبار "التخلف" صيرورة اجتماعية-تاريخية تولدت عن التأثير العنيف الذي مارسته الرأسمالية والإمبريالية العصرية على تشكيلات اجتماعية ما قبل الرأسمالية، تختلف بنيتها ومسار تطورها عما عرفته مجتمعات أوربا الغربية عشية بروز نمط الإنتاج الرأسمالي (ما بين القرنين 16-18). ومن هنا وجب التمييز بين بلدان رأسمالية، وبلدان استعمرتها ظلت تستغلها وتابعة لها (الأطراف).

2- تنوع أشكال التخلف منذ مرحلة تشكلها حسب الزمان والمكان، الذي يعبر عن اختلافات في بنيات ما قبل التغلغل الإمبريالي وعن مختلف الترتيبات لاندماج دول الأطراف في النظام العالمي.

3- تم اختراق نمط الإنتاج الرأسمالي للتشكيلات الاجتماعية الخاضعة (في دول الأطراف)، في إطار علاقة الدولة المستعمرة مع الدولة التابعة؛ ثم محاولته في مرحلة ثانية بعد استقلال هذه البلدان، التكيف مع السياق الجديد عبر استمرار التبعية له؛ نتج عنها تشكيلات اجتماعية مشوهة تختلف عن تشكيلات ما قبل التغلغل الاستعماري.

4- كل تشكيلة اجتماعية خاضعة، تعد وحدة كلية متحركة، تجري ضمنها عملية نسج، وتقوية أو فك سلسلة العلاقات الجدلية بين القاعدة المادية للمجتمع وبنيته الفوقية. ويعتبر استنباط طبيعة هذه العلاقات المتداخلة والمعقدة ودورها في الحفاظ على "التخلف"، أو خلق قوى إزالته، هو الإشكال المركزي المطروح. وفهم العلاقات الجدلية التي تحاك ما بين البنية الاقتصادية والبنية الفوقية، لا تتم إلا من خلال منهج تحليلي شامل لواقع "التخلف"؛ أي تحليل اجتماعي-اقتصادي؛ اجتماعي-ثقافي؛ اجتماعي-سياسي؛ اجتماعي-سيكولوجي..؛ هو منهج من شأنه أن يسمح بتأسيس استراتيجية شاملة للتنمية، تدمج العوامل الغير اقتصادية في صيغتها الدينامية؛ مما يعني رفض "المقاربة الاقتصادية الصرفة".

5- كل استراتيجية تنموية تحيل على طبيعة الدولة، والبنية الفوقية للمجتمع، والمشروع المجتمعي للطبقة السائدة، التي تقدم نفسها كخادمة للمصلحة العامة؛ بينما هي تعبير عن مصالح طبقية معينة، ونظرة أيديولوجية تسعى إلى تبرير تلك المصالح. ومن هنا تتجلى الأهمية الجوهرية للبعد السياسي والأيديولوجي لإشكاليات التنمية.

هذه المقترحات الأساسية الخمس المؤسسة لمنهجنا التحليلي، نقد صريح أو ضمني للمنهج الأكاديمي الذي يتطابق بين "التخلف" والتأخر، مرة؛ والحلقة المفرغة للفقر مرة أخرى؛ أو يعتبر "التخلف" ظاهرة ناتجة عن الانفجار الديموغرافي أو عن عوامل أخلاقية أو سيكولوجية (القدرية...).

من كتاب عبد العزيز بلال: التنمية والعوامل الغير اقتصادية، 1982 (ترجمة مركز عزيز بلال CERAB - 2020) .(بتصرف كرزازي موسى: من دفاتر مركز الدراسات والأبحاث عزيز بلال).

عزيز بلال أحد أركان حزب التقدم والاشتراكية ومن الرعيل المؤسس له

ولد المناضل عزيز بلال بضاحية تازة (مركز واد أمليل) سنة 1932، وأكمل دراسته الابتدائية والثانوية بمدينة وجدة، ودراسته العليا بالرباط، واستكملها بفرنسا بمدينة تولوز، في الفترة الممتدة بين 1951-1956.

شغل عدة مناصب عليا وتحمل عدة مسؤوليات كان جديرا بالقيام بها، كمكلف بمهمة قطاع التخطيط، وكاتب عام في وزارة الشغل ضمن حكومة عبدالله إبراهيم سنة 1959. وعلى المستوى الأكاديمي والبحث العلمي والتأطير الإداري فقد شغل مع مطلع الاستقلال منصب نائب العميد بكلية الحقوق بجامعة محمد الخامس في الفترة 1960-1961، وعين أستاذا محاضرا بها، بعد فوزه بدكتوراه الدولة في علم الاقتصاد من جامعة كرونوبل سنة 1965. انتخب رئيسا لشعبة الاقتصاد في كلية الحقوق بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء (الفترة 1976-1982). ونظرا لعمق تفكيره ورزانته فقد كان الرئيس المؤسس لجمعية الاقتصاديين المغاربة. ورغم الفترة القصيرة التي اشتغل فيها بالجامعة، فقد تخرج على يديه مئات الأطر والدكاترة. وقد أنتج مقالات وحاضر في عدة منتديات حول "ظاهرة التخلف" وسبل الخروج منه . كما أصدر كتابا فريدا تضمن أهم خلاصاته التي استخرجها من أبحاثه العلمية والتربوية "التنمية والعوامل الغير اقتصادية" 1982.

وظل المرحوم مناضلا صامدا منذ انخراطه بالحزب الشيوعي المغربي وهو في ريعان شبابه، سياسيا ومنظرا للحزب، ونقابيا محنكا مساندا للطبقة العاملة المغربية في إطار الاتحاد المغربي للشغل وفي إطار النقابة الوطنية للتعليم العالي التي كان من مؤسسيها ومن أعمدتها.

وقد انتخب مستشارا جماعيا لجماعة عين الذياب بالدار البيضاء الكبرى منتصف السبعينيات، وشغل منصب نائب لرئيس مجلسها. وبصفته منتخبا انتدب ضمن الوفد المغربي الذي زار مدينة شيكاكو بالولايات المتحدة الأمريكية، التي وافته المنية بها يوم 23 ماي 1982، في ظروف غامضة، بغرفته مختنقا، إثر اشتعال حريق بالفندق الذي كان يقيم فيه مع باقي أعضاء الوفد المغربي. وكان الوحيد الذي لم يعد من الوفد المذكور إلى بلده وجامعته وجماعته وأسرته الصغيرة وعائلته السياسية.

عزيز بلال

بلال في سطور

"نبذة عن حياة الرفيق عزيز بلال"

* ولد عبدالعزيز بلال بضاحية تازة (واد أمليل) سنة 1932، وخلف وراءه طفلان من زوجته السيدة عفيفة هما: عبد الكريم ويوسف.

* تابع دراسته الابتدائية والثانوية بمدينة وجدة. وقاوم منذئذ الاستعمار وهو في ريعان شبابه سنتي 1949-1950، من أجل استقلال البلاد.

*1951-1953 تابع دراسته الجامعية في الرباط، وفي نفس الوقت انخرط في الحزب الشيوعي المغربي، الحزب الطلائعي للطبقة العاملة وهو محظور. وساهم في تنظيم الطلبة للنضال ضد الحامية الفرنسية.

*1952-1956 تابع دراسته في مدينة تولوز (فرنسا) ونال فيها دبلوم الدراسات العليا. وفي نفس الوقت، تعاطى لنشاط سياسي مكثف من أجل الاستقلال على رأس الطلبة المغاربة والأفارقة.

*1956-1958 قام بمهمة في التخطيط، وساهم في إعداد المخطط الخماسي الأول (1960-1964)

* 1959، عين كاتبا عاما لوزارة الشغل، وساهم في تحضير مشروع الضمان الاجتماعي الذي يعد الأول من نوعه في تاريخ المغرب.

*1960-1971 نظم الشعبة العربية في كلية الحقوق بجامعة محمد الخامس بالرباط كما شغل منصب نائب العميد بها.

*1962-1965 عين أستاذا محاضرا بكلية الحقوق بجامعة ممد الخامس بالرباط، حيث كان يدرس الاقتصاد السياسي. وبرز من خلال نشاطه السياسي والنضالي المميز، كأحد زعماء الحركة التقدمية والثورية.

*1965 نال أطروحة الدولة في العلوم الاقتصادية حول "الاستثمار في المغرب" من جامعة غرونوبل. وتشكل هذه الأطروحة أجود بحث نشر لحد الآن حول الاقتصاد المغربي. وفي نفس السنة (1965) عين أستاذا للتعليم العالي.

*1966-1968 إلى جانب أعماله الجامعية العلمية والتربوية والتأطيرية، تابع نشاطه النضالي، وساهم في عدة مؤتمرات دولية للاقتصاديين حول مشاكل العالم الثالث.

*1968 ساهم في تأسيس حزب التحرر والاشتراكية PLS 1968، وانتخب عضوا في لجنته المركزية ومكتبه السياسي. وعلى المستوى العالمي، قام بنشاط مكثف للتعريف بالقضية الفلسطينية.

*1969-1974 إلى جانب نشاطاته السياسية والنقابية (النقابة الوطنية للتعليم العالي SNEsup)، نشر عدة أبحاث علمية حول الاقتصاد المغربي وحول مشاكل أفريقيا والعالم العربي.

*1954-1975 ساهم في تأسيس حزب التقدم والاشتراكية، 1974 –PPS- وانتخب عضوا في لجنته المركزية ومكتبه السياسي. وساهم في المسيرة الخضراء سنة 1975 لأجل تحرير الأقاليم الجنوبية.

*1976 انتخب عضوا في مجلس الجماعة الحضرية لعين الذئاب والنائب الأول لرئيس الجماعة بالدار البيضاء.

*1976 عضو مؤسس لجمعية الاقتصاديين المغاربة، وانتخب رئيسا لها إلى حين وفاته.

*1976-1982 انتخب للمرة الثانية على التوالي من طرف زملائه كرئيس لشعبة العلوم الاقتصادية بكلية الحقوق الدار البيضاء.

*1980 نشر كتابه " التنمية والعوامل غير الاقتصادية" بدار النشر سمير، والذي يعتبر ثمرة سنين عديدة من التفكير والممارسة السياسية والنقابية.

في هذا الإطار، يضيف عزيز بلال، فإن حزب التقدم والاشتراكية الذي سيخرج إلى الوجود كامتداد للتحرر والاشتراكية، يعتبر معادلة سياسية وازنة وحاسمة في المشهد السياسي المغربي، وأساسا في معركة استرجاع الصحراء الغربية المغربية. وبالتالي لا خيار ولا مفر للنظام من الاعتراف بوجوده، كقيمة مضافة في المشهد السياسي المغربي، نظرا لوزنه في الداخل، وإشعاعه الدولي في الخارج، وعلاقاته المتينة مع القوى الاشتراكية والثورية والتقدمية في العالم. وهذا يتطلب منا مع ذلك، ضرورة إقناع هذه القوى الصديقة، بعدالة قضيتنا الوطنية كمسألة تحرر وطني، ضد بقايا مستعمر غاشم محتل لجزء من أرضنا، لدعم القضية الوطنية، وقطع الطريق أمام خصوم وأعداء وحدتنا الترابية.

وأردف عزيز بلال في تحليله قائلا: إن مشكل الصحراء جد معقد إقليميا، ودوليا في ظروف حرب باردة. ومن المستحيل حل مشكل الصحراء حتى في ظرف العشر سنوات القادمة. ولذلك، لا يمكن للحكم منعنا في خضم المعركة التي نخوضها إلى جانب القوى الحية في البلاد لاسترجاع الأرض، وتوطيد الوحدة الترابية.

ونظرا لحنكة المرحوم عزيز بلال السياسية وبعد نظره، فقد ربط بين تحرير الأرض، وتعميق المسلسل الديموقراطي، الذي انطلق فعلا مع المسيرة الخضراء سنة 1975، وما صاحبه من انفراج سياسي تمثل في الانتخابات الجماعية سنة 1976، والتشريعية 1977. وهو مسلسل ديموقراطي يتوافق تماما مع قرار رفع المنع عن أنشطة مناضلي حزب التحرر والاشتراكية بخروجهم إلى العلنية، في إطار حزب جديد، هو التقدم والاشتراكية سنة 1974، كامتداد للتحرر والاشتراكية.

هذه الرؤية الثاقبة والصافية التي تميز بها عزيز بلال، وتفاؤله الثوري في المستقبل، تجعل منه ذلك السياسي المحنك الذي خبر السياسة، فصدقت توقعاته التي لا زلنا نعيش أطوارها إلى اليوم 2024؛ سواء تعلق الأمر بمشكلة الصحراء التي مرت عليها أزيد من 48 سنة ولم تعرف بعد، حلا نهائيا، نظرا لشراسة الخصم الجزائري والوضع الدولي، رغم انهيار جدار برلين واختفاء الحرب الباردة. وقد حقق المغرب في السنوات الأخيرة طفرة قوية في نضاله وديبلوماسيته المتزنة التي تراعي مصالح الوطن والشعب المغربي كأولوية، خاصة بعد عودته إلى الاتحاد الإفريقي وتفتحه على البلدان الإفريقية عبر القوة الناعمة التي عرف بها في إطار تطبيق مبدأ رابح-رابح، ومساهماته الإيجابية لاستتباب الأمن والسلم في العالم (الاعترافات الدولية بمغربية الصحراء من قبل دول وازنة كالولايات المتحدة الأمريكية وإسبانيا...). كما أن مسلسل الديمقراطية، ورغم الأشواط الإيجابية التي قطعها المغرب، والوزن السياسي الذي أصبحت تحظى به الأحزاب الوطنية والتقدمية على الساحة الوطنية، ومساهمتها في تدبير الشأن العام المحلي والحكومي لمدة 20 عاما (1998-2019)، بعد أن كان نشاط بعضها محظورا لعقود من الزمن، فلا زال المد والجزر يطبع المسلسل الديموقراطي. وقد طالت مرحلة الانتقال الديموقراطي حتى بعد الربيع الديمقراطي، وهذا، رغم المكاسب التي حققها الشعب المغربي وقواه الحية الوطنية والتقدمية والثورية في عدة ميادين ومنها، ميلاد دستور جديد 2011، كنتيجة مباشرة للربيع الديمقراطي، والذي لم تفعل معظم بنوده بما فيه الكفاية، لحد الساعة (ماي 2024)، وكذا أهمية صدور مدونة الأسرة والطفل التي أصبحت اليوم متجاوزة وتسعى الدولة لتحيينها حاليا 2024؛ بل تظل المطالب مركزة على الحقوق الفردية والاجتماعية، ومنها أيضا المكاسب والنتائج التي أسفرت عن العمل الجاد لهيئة الإنصاف والمصالحة، وما تلاه من عفو على المناضلين المنفيين وجبر الضرر للساكنة المتضررة القاطنة في مناطق تواجد المعتقلات السرية بقلعة مكونة وأكدز ودرب الشريف بالدارالبيضاء وغيرها، التي كانت مطوقة ومحاصرة لعدة سنوات...

وعودة إلى عمق وحصافة عزيز بلال، في الواقع، كان جوابه الشافي والواقعي عن سياق وظروف رفع الحظر عن الحزب سنة 1974، ينم عن بعد نظر، يفتح الآفاق الرحبة أمام المناضلين. فهو مناضل مؤمن بالعمل الجماهيري، متفائل بنتائجه المستقبلية. فبرؤيته الواضحة للمستقبل، قد خبر الحياة السياسية ميدانيا، وتعمق في الفكر الاشتراكي المتنور، في دينامية وجدلية مستمرة، بعيدا عن التحجر السياسي، واليأس القاتل، والعمل السياسي المزيف والمصطنع. إنه المناضل الغيور على بلده، كمنتخب بالدار البيضاء، قلعة الطبقة العاملة، وكقائد سياسي محلي وإقليمي لحزبه في الميدان، وموجه له في اللجنة المركزية، ومنفذ لقراراته في الديوان السياسي. وهو إضافة إلى هذا وذلك، المثقف الثوري الذي يعمل في أفق تحقيق المشروع المجتمعي كإستراتيجية.

3- إشعاع عزيز بلال في الميدان الفكري في حياته وبعد مماته وتعلق الباحثين به

في محور ثالث سأعطي بعض الجوانب التي تبرز إشعاعه في ميدان الفكر في حياته ومماته، وتعلق الباحثين بأفكاره الواضحة التي نشرها عبر طلبته، ورفاقه، وكل من تلقى دروسا حول فكره ومشروعه المجتمعي، للخروج من التبعية والتخلف إلى الانعتاق والتنمية، بدون المرور بكل المراحل التي مرت منها الدول المتقدمة.

أنجز الراحل أطروحة دكتوراه دولة في علم الاقتصاد حول الاستثمارات الأجنبية بالمغرب خلال فترة الحماية ومطلع الاستقلال (1912-1964)(3). وهو عمل جاد ورصين يظل مرجعا أساسيا لكل باحث في هذه الفترة، نظرا لعمق التحليل وشمولية الرؤيا، وإعطاء اقتراحات لتجاوز الأوضاع التي ساهم فيها الاستعمار الترابي والاقتصادي لبلادنا وشعبنا، وكذا القوى الرجعية والمحافظة التي عملت على كبح مخطط التنمية في حكومتي عبدالله إبراهيم. وقد فعلت نفس الشيء في حكومة التناوب في عهد اليوسفي.. وإلى اليوم (2024) لا تزال بعض العراقيل وكوابح التنمية قائمة.

وتحتاج البلاد إلى نفس ديموقراطي، وانتقال ديموقراطي سريع، في أفق ملكية برلمانية قائمة على دولة الحق والقانون، وربط المسؤولية بالمحاسبة، بعيدا عن الريع السياسي الاقتصادي والغبن الاجتماعي، في غياب عدالة اجتماعية ومجالية.

يسعدني أن أشير إلى جوانب من شخصية عزيز بلال كأستاذ متميز للاقتصاد بجامعة محمد الخامس، وجامعة الحسن الثاني، ومؤثر في محيطه الجامعي والسياسي، وكيف كان يراه ويتمثله طلبته، وأصداء أفكاره في الأوساط الطلابية في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وفي أوساط الباحثين في الاقتصاد السياسي وقضايا العالم النامي.

لقد طبع عزيز بلال عدة أجيال طلابية في أول جامعة عصرية بالمغرب "جامعة محمد الخامس بالرباط منذ 1957"، حيث كان من الرعيل الأول المؤسس لها ولشعبة الاقتصاد، ثم جامعة الحسن الثاني بالدارالبيضاء، رغم قصر عمره (52 عام فقط). كان طلبته معجبين بدروسه وأفكاره وتحاليله العميقة وبعد نظره، حيث صنفوه في خانة كبار علماء الاقتصاد ومنظري العالم النامي من عيار سمير أمين، ويوري بوبوف العالم السوفياتي الذي ألف معه كتابا مشتركا حول ظاهرة التخلف بالعالم النامي وسبل الانعتاق من التبعية، والتحرر الاقتصادي والاجتماعي. وقد نشر الكتاب بعد وفاة المرحوم عزيز بلال بموسكو سنة 1987، تحت عنوان: تركبة التخلف في الماضي والحاضر والمستقبل(4).

ولذا انخرط عدد من الباحثين من تلقاء أنفسهم في صفوف الحركة التقدمية والثورية حتى المحظورة منها كحزب التحرر والاشتراكية وحزب التقدم والاشتراكية، لتأثرهم بأفكار عزيز بلال، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، نظرا لجاذبيتها وصدقية مؤلفها. ولا زال كتابه "التنمية والعوامل الغير اقتصادية" يحتفظ إلى اليوم بالراهنية في معظم فقراته. وهي الخلاصة التي استخلصها عزيز بلال من عصارة أبحاثه العلمية كباحث، وأيضا فاعل سياسي ونقابي وجمعوي في الساحة، حيث ربط البحث العلمي بالممارسة العملية الميدانية، قصد خدمة الصالح العام والطبقات الكادحة في بلده، كجزء من البلدان النامية، باعتباره عالما دوليا يخدم القضايا العادلة، والقيم الإنسانية السامية، والسلم والرخاء في العالم.

في هذا الصدد، فقد سررت بردود الفعل الإيجابية لطلبتنا بجامعة محمد الخامس حول الخلاصات الخمس الواردة في مؤلف عزيز بلال حول إشكالية التخلف وسبل التخلص منه، وهو الدرس الذي كلفت بإلقائه بمدرج ابن خلدون بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة الجغرافيا، جامعة محمد الخامس بالرباط في مادة "جغرافية التخلف" (1984-1989). وقد عوضت قصدا عنوان الدرس بعنوان متفائل هو: "قضايا التنمية في البلدان النامية". وهو نفس الدرس الذي تلقيناه بمدرج ابن خلدون ونحن طلبة، من طرف المرحوم أستاذنا الدكتور أحمد الغرباوي، في السنة الثالثة إجازة، بنفس الشعبة، بعد عودته من فرنسا والتحاقه بالجامعة المذكورة. وخصصت كأستاذ جامعي لنفس الدرس، محورا أساسيا لفكر عزيز بلال، حول قضايا التنمية في البلدان النامية. وفي كل لقاء مع بعض خريجي تلك الأفواج من طلبتنا، فأول ما يتذكرونه حين اللقاء بهم، هو فكر عزيز بلال وخلاصاته الأساسية حول التخلف وسبل التنمية، من خلال ذلك الدرس الذي يفتخرون به كقاعدة لتكوينهم الجامعي، ومنهم من أصبحوا أساتذة جامعيين (حاليا بجامعة الأخوين وجامعات مغربية..)، وأطر إدارية عليا، وأطر سلطة (رؤساء دوائر وعمال وولاة). ونحيي مركز عزيز بلال الذي قام بتعريب الكتاب ونشره دجنبر 2020، حول "التنمية والعوامل غير الاقتصادية"، ليطلع عليه قراء اللغة العربية بالمغرب وبالعالم العربي والإسلامي.

رغم اختفائه الجسدي عنا، يظل المرحوم عزيز بلال رمزا للتضحية، والاستماتة في الدفاع عن الوطن في جدلية النضال من أجل تعميق الديموقراطية والتضامن مع الكادحين. ويظل منارة للوطن والمثقف الملتزم وفخرا لقوى الحرية والتغيير، حتى أن عددا من المثقفين كانوا يصفون الحزب الذي ينتمي إليه، بـ"حزب عزيز بلال". وهو ما جعلنا في قيادة الشبيبة المغربية للتقدم والاشتراكية ((JMPS (الشبيبة الاشتراكية حاليا) في أول مكتب وطني لها، نؤسس منظمة الطلائع في مطلع الثمانينيات، أطلقنا عليها اسم عزيز بلال، تيمنا بهذا المناضل الفذ، ليكون الجيل الجديد أحسن خلف لخير سلف: "منظمة الطلائع، - عزيز بلال" سنة 1980 (منظمة الطلائع أطفال المغرب حاليا).

كما أن محبي فكر عزيز بلال في أوساط المثقفين لم يترددوا في تأسيس مركز علمي للبحث يحمل اسمه: "مركز عزيز بلال للدراسات والأبحاث" ((CERAB حيث يسهر على تطوير أفكاره باحثون، في مقدمتهم من تتلمذوا عليه في مدرجات كلية الحقوق، بجامعة محمد الخامس بالرباط، ولاحقا بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، أو من التحقوا بهم؛ وهم ويعملون جادين على تطوير نظريته التنموية.

وقد حاولنا كمستشارين منتخبين، باسم الحزب الذي كان ينتمي إليه، في جماعة أكدال الرياض (2003-2009) اقتراح تسمية أحد شوارع العاصمة باسم عزيز بلال. ولكن السلطات لم تستجب لهذا الطلب، كتكريم لزعيم سياسي وأستاذ جامعي جليل، وتشريف للعاصمة باسم هذا المناضل الوطني الدولي الذائع الصيت.

خلاصة عامة

كان المرحوم عزيز بلال مناضلا سياسيا ونقابيا محنكا، ومثقفا ملتزما، وأستاذا مرموقا، ورمزا من رموز الحركة الوطنية والتقدمية والثورية المغربية، صلبا ضد الرجعية المحلية، والإمبريالية بدون هوادة، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بروحه الطاهرة، وهو في بداية عقده الخامس، في عز عطائه العلمي والثقافي والفكري التقدمي، والسياسي، والنقابي، حين اختنق بغرفته في فندق بقلعة الإمبريالية في ظروف غامضة، والتي سيكشف التاريخ عن كل الحقيقة، آجلا أم عاجلا. فقد توفي وهو يؤدي واجبه كمواطن منتخب، كان يمثل مدينة الدار البيضاء ضمن الوفد المغربي بمدينة شيكاكو. ومما يدعو إلى الاستغراب هو أن كل مرافقيه من أعضاء الوفد المغربي عادوا سالمين إلى بلدهم، باستثناء عزيز بلال، الذي أعيد جثمانه في تابوت من خشب وزجاج يكشف وجهه، وكانت جنازته حدثا سياسيا عظيما شاركت فيه جماهير متنوعة من كل الفئات والأطياف السياسية والنقابية والجمعوية ومن مناضلي حزب التقدم والاشتراكية يتقدمهم أمينه العام المرحوم علي يعته وأعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية ومناضلات ومناضلين من مختلف المدن وخاصة من الدار البيضاء التي ووري جثمانه بمقبرتها المركزية. وبذلك اعتبر فقدانه خسارة كبرى لحزبه وطلبته وعائلته وبلده وشعبه، وبلدان العالم النامي التي سخر خبرته لخدمة شعوبها السائرة في طريق النمو.

رحم الله شهيد الوطن والحزب والجامعة المغربية عبدالعزيز بلال. ودام فكره وروحه ونضاله قدوة لنا ونبراسا تهتدي به الأجيال الحاضرة والصاعدة.

الرباط في 23 ماي 2024

* أستاذ فخري بجامعة محمد الخامس الرباط Rabat-Professeur Emérite UM5.

الكاتب العام لمركز الدراسات والأبحاث عزيز بلال (CERAB)وعضو المجلس الإداري لمؤسسة علي يعته

هوامش:

1- Développement et ,1980 ,Abdel Aziz BELAL facteurs non économiques, SMER, Rabat.

2- أشكر في هذا الصدد الرفيق محمد مشارك، على تفضله بتدقيق تواريخ بعض الأحداث في زمن الرصاص والحظر الذي تسلط على حزب التحرر والاشتراكية (1968-1974)، لكونه كان عضوا بمكتب ناحية الرباط في الفترة التي كان فيها الرفيق عزيز بلال كاتبا أولا للناحية رفقة الرفاق إسماعيل العلوي وفتحي لخضر والمهدي بنشقرون وحسن لمباركي وأبهات أحمد، والسربوتي أحمد، والعربي الياسني...

3- L'investissement au ,1968 ,Abdel Aziz BELAL et ses enseignements en matière de (1964-1912) Maroc développement économique, Paris, Mouton.

4- La formation ,1987 ,Abdel Aziz BELAL, Youri POPOV du sous-développement, passé, présent, futur, Edition du Progrès (Manuel des sciences sociales), Moscou.